مقدمة

من حق القارئ أن يعرف منذ الوهلة الأولى أن موضوع التأثير الإسلامى فى الكوميديا الإلهية لدانتى ليس وليد اليوم ، وإن كانت هذه أول مرة يعرض فيها بشكل واف باللغة العربية . ففى أوائل هذا القرن نبت فى مخيلة عالم إسبانى ضليع أمضى عمره فى معايشة التراث العربى والذخائر الإسلامية أن ما يحفل به هذا التراث من صور الدار الآخرة وأدب المعراج يكمن وراء أنضج وأقوى أثر أدبى أوربى فى العصور الوسطى وهو ملحمة دانتى الخالدة ، فعكف عشرين عاما يعالج مصادره ويبحث طرائقه حتى أخرج نظريته فى هذا التأثير نموذجا منهجيا فى الدراسات المقارنة المحكمة .

وكانت مفاجأة مذهلة لأبناء الثقافة الأوروبية ؛ فعز عليهم أن يعترفوا بالدين للثقافة العربية الإسلامية فى مرحلة عطائها الخصب ، ونشبت معركة علمية حادة بين هذا الباحث المتمكن « أسين بالاثيوس » ومن اكتسبتهم نظريته من أنصار وبين من ينكرون ذلك العطاء . وبعد ثلاثين عاما من تاريخ بدء الجدل الساخن اكتشفت وثيقة دامغة تؤيد النظرية وتقطع السبيل على حجج منكريها .

كان ذلك على وجه التحديد عام ١٩٤٩ . ومن ثم أصبحت القضية من أهم منجزات الأدب المقارن فى القرن العشرين .

ومع ذلك فإن المشكلة لم تدخل كاملة إلى المكتبة العربية حتى الآن ، فلم تترجم هذه الدراسات مع شدة حاجتنا إليها ونحن نؤصل لمناهج الأدب المقارن فى جامعاتنا ، ولم تعرض نتائجها بما تستحقه من عناية وإحاطة مع أنها تعطى لنا دفعة قوية من الثقة المدعمة بالبراهين العلمية فى ثقافتنا القومية وتحفزنا إلى الاعتزاز الواعى بتراثنا وتساعدنا على التخلص من حساسية المتخلف الذى يخشى عواقب الاتصال الفكرى على أصالته . مع أنه شرط جوهرى لتغذيتها وإنمائها .

ولئن كان هناك علماء مصريون قد أسهموا بجهدهم النبيل فى تنوير الفكر العربى وإضاءة بعض جوانب هذه القضية له فإن ذلك قد تم فى إطار دراسات جامعة لما يناظرها من قضايا مشابهة ، وقد آن الأوان كى نفرد لكل موضوع بحوثه المستقلة الوافية ، وندعو

كى يدخل بكامل حجمه إلى لغتنا العربية حتى ينهمر فى معيننا العلمى ويحدث أثره المنشود فى وجداننا القومى .

ويطيب لى فى هذا التقديم أن أشير إلى أهم هذه الدراسات ، لا على سبيل نقد المصادر ، وإنما من قبيل التحية والتنويه والاعتراف بفضل السبق والريادة .

ولعل أول مصدر عربى مبكر عرض لتأثير الثقافة الإسلامية فى الكوميديا الإلهية عقب نشر الترجمة الانجليزية لكتاب « أسين أبالاثيوس » عام ١٩٢٦ كان كتاب الأستاذ عبد اللطيف الطيباوى الذى صدر فى القاهرة عام ١٩٢٨ بعنوان « التصوف الإسلامى العربى : بحث فى تطور الفكر العربى » وقد عالج هذه القضية المقارنة – كما يقتضى سياقه – فى فصل يقع فى ست عشرة صفحة بعنوان « ابن عربى ودانتى » قدم فيه عرضًا مركزًا للكتاب الذى « أقيم على طريقة تحليلية علمية يكفى أن نقول فيها إن الرأى العام عدها من عجائب التآليف » . فشرح المؤلف مباحث الكتاب الأربعة التى تناولت أولا روايات الإسراء والمعراج كمصدر للكوميديا والتراث الأدبى والصوفى عند المعرى وابن عربى ، ثم حلل بعض العناصر الصوفية كما وردت فى « الفتوحات المكية » موضحا مشابهتها لأجزاء الكوميديا . وبحث فى القسم الثالث الأقاصيص النصرانية والأساطير الأوربية التى كانت شائعة فى العصور الوسطى قبل دانتى وكانت بدورها مستقاة من مصادر عربية إسلامية ، وفى القسم الرابع وهو على حد تعبير الأستاذ الطيباوى « أهم أقسام الكتاب وأدقها بحثا وأقواها حجة » رجح المؤلف انتقال تلك الأفكار الإسلامية إلى أوربا المسيحية عامة وإلى دانتى خاصة بوسائل متعددة من تجارة وحركة حجيج وحروب صليبية ونشاط تبشيرى ، وحدد أهم مواقع التقاء الثقافات حينئذ ، وهى صقلية (التى نقل اسمها سيسيليا) وبلاط ملوكها ، ثم أسبانيا خاصة فى طليطلة وقرطبة وإشبيلية على مدار عدة قرون .

وقد نبه الباحث إلى أن المستشرق الفرنسى الأستاذ « بلوشيه » كان أول من أشار إلى أصل الكوميديا الإسلامى والتمسه فى التراث الفارسى لكنه عجز عن إثبات ذلك بالبرهان ، حتى جاء « أسين بالاثيوس » بنظريته المنهجية المدعمة ، وأخذ الأستاذ الطيباوى فى شرح الملابسات التاريخية والثقافية التى ترشح وتعزز فكرة التأثير ، فوضح أن دانتى كان معجبا بالثقافة الإسلامية وقد مكنته وسائل اتصال أوربا بالإسلام من الاقتباس منها والتأثر بها « فإذا ثبتت أسبقية الآداب الإسلامية لغيرها وبالتالى دانتى ، واتضحت المشابهة بين هذه الآداب وما جاء به الشاعر الفلورنسى ، وأمكن القول بانتقال هذه الأفكار فقد

اتصلت الحلقة دون انقطاع ، وإذن فنظرية أصل الأطوبة (يقصد الكوميديا) الإسلامى أمر لا يمكن جحده » .

ويبدو أن هذا العرض الذى كتب منذ ما يربو على نصف قرن ، وقدم المشكلة للقارئ العربى لأول مرة فيما نعلم كان يتجه إلى دارسى التصوف بصفة خاصة ، واعتمد على الترجمة الإنجليزية المختصرة التى حذفت منها أبيات دانتى والنصوص الإسلامية الواردة فى أصل كتاب « أسين بالاثيوس » ، فاهتم فى المقام الأول بتاريخ الأفكار طبقا لمنظوره الفلسفى ، وأغفل بقية النواحى الفنية التصويرية التى حفل بها الكتاب المعروض ، كما أنه بطبيعة الحال وقف التعريف بالمشكلة عند هذه المرحلة المبكرة .

وفى عام ١٩٥٣ م نشر أستاذنا المرحوم الدكتور غنيمى هلال الطبعة الأولى من كتابه الفذ « الأدب المقارن » الذى جمع فيه مادة علمية ضخمة يمكن أن تتوزع على عدد كبير من الكتب والدراسات المفصلة ، وقد قام فيه المؤلف بجهد كبير فى تأصيل مناهج الأدب المقارن وتخطيط ميادينه طبقا لمنظور المدرسة الفرنسية ، وأشار إلى كثير من إنجازاته وقضاياه بتركيز شديد بغية رسم معالمه وتحديد مناهجه فى الجامعات المصرية والعربية .

وقد عرض لقضية التأثير الإسلامى فى الكوميديا الإلهية فى نطاق الحديث عن الملحمة كجنس أدبى تضافرت الآداب المختلفة على إنمائه وتطويره ، فوضعت القضية منذ ذلك الوقت فى إطارها الملائم ، كما كان قد نشر فى اسبانيا وإيطاليا حينئذ نص وثيقة المعراج التى قدمت الدليل الحاسم على صدق النبوءة الأولى ، فعرض غنيمى هلال فى خمس صفحات موجزًا لتاريخ الموضوع وأشار إلى أهم تطوراته ونتائجه ، والتقط بضعة مشاهد من وثيقة المعراج كأمثلة عامة موضحا عمق تأثيرها فى الكوميديا الإلهية بعد أن قدم ملخصا لها أبرز فيه طابعها الدينى الرمزى ، ووعد بأنه سيعالج « هذه المسألة الهامة بالتفصيل فى كتاب آخر » ولكن القدر أعجله عن إتمام هذا المشروع وغيره من المشروعات الواعدة الوفيرة التى ألمح إليها وترك لتلاميذه مهمة إنجازها . على أن ما تميز به هذا المفكر الجامعى الطموح من قدرة هائلة على الاستقصاء ، وروح طليعى وثاب ، وإيمان متوهج برسالته العلمية النقدية لم يلبث أن احترق به قد جعل مهمة تلاميذه شاقة من بعده ؛ فقد يصيبهم الإحباط إذا ما سموا بأنظارهم إلى أفقه دون أن تكون لهم أجنحته ، فلا يبقى أمامهم إلا المغامرة الجسور ، وحسبهم المحاولة المخلصة الدؤوب .

وبعد قرابة عشر سنوات قدم الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى ، أغزر المعاصرين

إنتاجا وأوفرهم مادة ، كتابه الجامع « دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى » فلخص فى عشر صفحات بعض جوانب المشكلة التى تشغلنا ، وركز على المرحلة الأخيرة منها ، معتمدا على الدراسة التى كتبها الباحث الإيطالى « انريكو تشيرولى » عند نشره لوثيقة المعراج .

ثم أورد الدكتور بدوى حديثا مطولا من الفتوحات المكية ، استغرق أربع صفحات ، عن مواقف الحشر الخمسين التى يبلغ طول كل منها ألف عام ، وسرادقات الحساب يوم القيامة ، بحجة أن « هذا الوصف المفصل الدقيق لمرحلة الأعراف نجد له نظائر عديدة ومطابقة (أى عند دانتى) يأخذ أسين فى بيانها » والواقع أن « أسين بالاثيوس » اعتمد – كما سنرى – على نصوص أخرى فى التراث الإسلامى أقرب إلى الروح الملحمى التصويرى عند دانتى ، ولم يقف كثيرًا أمام هذا الحديث بالرغم من قراءته المتأنية المستوعبة لجميع فصول الفتوحات ، لأنه لا يقدم له مادة تتسق مع هدفه المقارن ؛ إذ أن الأعراف عند دانتى ليست – كما يقول الدكتور بدوى – « طريقا منزلقا وعقبات يصعب اجتيازها وصخرة عالية جدًا » وليست هذه نقطة الضعف الوحيدة فى عرضه الذى يتسم بالتسرع وعدم التثبت ، وكان الأحرى بمن فى مثل علمه وإحاطته وأستاذيته أن يكون أكثر منهجية ودقة ؛ فهو يقول عن الباحث الإسبانى الآخر « مونيوث سندينو » إنه « نشر فى نفس السنة – سنة ١٩٤٩ – الترجمات الثلاث : الاسبانية واللاتينية والفرنسية مع مقدمة وتعليقات (ويورد فى الهامش اسم الكتاب بالإسبانية) فزادت هذه النشرة إذن على نشرة تشيرولى بنشر الترجمة الإسبانية ، ولكنها لا تحوى تلك الشواهد والنصوص الخطيرة التى نشرها تشيرولى » .

ومن الواضح أن الدكتور بدوى لم يطلع على كتاب « سندينو » اللهم إلا إطلالة عجولة على عنوانه فحسب ؛ لأنه لا توجد بين يدى الباحثين هذه الترجمة الإسبانية ، بل هى مفقودة مع الأصل العربى ، حتى ليظن بأنها كانت مجرد مسودة للترجمتين اللاتينية والفرنسية طرحت بعد استخدامها ، وكل ما فعله (سندينو) أنه قام بتلخيص واف للوثيقة ، وعرضها باللغة الأسبانية الحديثة – وهذا ما أفدت منه فى عرضى – وهى تختلف عن القشتالية القديمة التى ترجم النص إليها أولا .

ثم يشير الدكتور بدوى إلى تلخيص (بدرو باسكوال) لنص المعراج فى كتابه عن (الطائفة المحمدية) فيذكر أن (تشيرولى) نشره فى نصوصه ، ويغفل أن (سندينو) فعل أيضًا نفس الشىء ونشره ضمن وثائق أخرى تكشف عن شيوع قصة المعراج لدى

المؤلفين الأوربيين فى العصر الوسيط . والواقع أن كتابًا مثل (دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى) فى طموحه واتساع ميدانه لم يكن ينتظر منه أن يكون أوفى أو أشمل فى عرضه للقضية التى تشغلنا ، إذ أنه يقدم فى حيز محدود ما تنوء به المجلدات الطوال ، فيضطر إلى أن يقتطف من هنا وهناك . معتمدًا على بحوث الآخرين فيوجزها دون نسبة أحيانًا إن ضاق المقام ودون تثبت أحيانًا أخرى إن أعجله الوقت ، ومن ثم يقع فى مثل الهنات التى ذكرناها . لكنه يظل مفيدا فى تقديم صورة بانورامية مجملة لكثير من القضايا الحيوية الخطيرة .

ثم أصدر الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن كتابه القيم « دراسات مقارنة » عام ١٩٧٥ ، فأورد فيه فصلا محكمًا بعنوان « الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية » تناول فيه أيضًا تاريخ المسكلة ، لكنه عرض أهم عناصرها بدقة شديدة وتوازن كبير ، ثم أخذ فى عقد مقارنة علمية خصبة بين الرموز الدينية والاجتماعية عند دانتى ونظائرها فى رسالة الغفران للمعرى ، مبرزًا الطابع الذاتى والمستوى الفنى لهذه الرموز ، وكيف كانت تتكيف لدى كل من الشاعرين بالمناخ الثقافى والسمت الحضارى لعصره ، وقد أوضح الدكتور إبراهيم عبد الرحمن أن التشابه بين دانتى والمعرى يشمل فلسفة أثريهما وشكلهما الفنى معًا ، وأورد عديدًا من الأمثلة التى تشهد على ذلك . وإذا كان « أسين بالاثيوس » قد كتب بعد تحليله العميق للعناصر الإسلامية لدى دانتى يقول : « إن الشاهد التاريخى أو الوثيقة المكتوبة — فى حالة وجودها — سوف تبرهن على التأثير الذى تؤكده الوقائع والنصوص ، لكنها لن تضيف إليه أى قدر من قوة الإقناع العلمى المنبثقة من شواهد هذا التأثير قبل أن يكتشف دليله التاريخى » فصدقت نبوءته ، واكتشف بوثيقة المعراج الشاهد التاريخى ، لكنه بالفعل لم يضف كثيرًا إلى قوة الإقناع العلمى التى تميزت بها بحوثه ، إذا كان الأمر كذلك فيما يتصل بالمعراج فإن رسالة الغفران بمظاهر التشابه العميقة التى ألمح إليها الدكتور إبراهيم عبد الرحمن تنتظر بدورها الشاهد التاريخى الذى يثبت نقلها كاملة أو ملخصة إلى إحدى اللغات الأوربية فى العصر الوسيط لتتم به دورة هذا التأثير الخلاق وتكتمل قرائنه .

أما آخر بحث جاد فى هذا الموضوع فهو كتاب الدكتور رجاء جبر الذى صدر عام ١٩٧٧ بعنوان « رحلة الروح بين ابن سينا وسنائى ودانتى » وأراد فيه — على حد تعبيره — أن يتقدم بالبحث خطوة فى هذا المجال ، فتناول علاقة الكوميديا الإلهية بالمصادر الشرقية التى عالجت الرحلة إلى العالم الغيبى علاجًا فلسفيا صوفيا ؛ خاصة منظومة « سير العباد

إلى المعاد » للشاعر الفارسى سنائى الغزنوى (٥٩٥ هـ/ ١١٣١ م) المتأثرة بدورها برسالة حى بن يقظان لابن سينا . على أن هذه الخطوة – كما يشرح بأمانة الباحث نفسه – سبق أن تقدم بها المستشرق الإنجليزى (أرنولد نيكلسون) فى بحث نشره عام ١٩٤٣ بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعنوان « رائد فارسى لدانتى » وانتهى إلى نتيجة علمية موثوق بها ؛ وهى أن تفصيلات المشابهات بين الأثرين تحمل على الاعتقاد بأن هناك مصدرًا مشتركًا للشاعرين ، وهو المادة الماثلة فى الروايات الإسلامية عن المعراج ؛ إذ ليس ثمة دليل على أن هذه المنظومة قد نقلت إلى إحدى اللغات الأوربية بطريقة تسمح باطلاع دانتى عليها ، بالإضافة إلى صعوبتها واستغلاق رموزها قبل أن تكتشف شروحها ، وبوسعنا أن نقول إن الزميل الكبير الدكتور رجاء جبر قد نجح فى أهدافه التى وضعها لبحثه الدقيق وهى :

– إثارة الاهتمام بدور ابن سينا الأدبى بجانب دوره كفليسوف .
– إلقاء مزيد من الضوء على فكر الشاعر الفارسى سنائى .
– تنمية موضوع التلاقى بين الآداب الإسلامية والعالمية .

بيد أن هناك بعض الملاحظات اليسيرة التى لا تنقص من قدر بحثه ولا أهميته ، منها أنه اعتمد فى عرضه لمعراج أبى يزيد البسطامى على نشر مجلة « إسلاميكا » الإنجليزية وكان الأجدر به أن يعتمد على النشرة العربية الموثقة التى أصدرها ضمن مكتبة الآداب الصوفية الأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر بالقاهرة عام ١٩٦٤ . كما أنه عمد إلى تقديم ملخص مطول نسبيًا للكوميديا الإلهية لا تدعو إليه الضرورة بعد الترجمة المتقنة الدقيقة النموذجية التى أثرى بها المرحوم الدكتور حسن عثمان المكتبة العربية بأجزاء الكوميديا الثلاثة بجميع شروحها وهوامشها وتعليقاتها ، ويا ليت كل عيون الأدب العالمى تحظى بجزء من مثل هذا المجهود ، وكان الأولى بالدكتور رجاء أن يصرف همه إلى تقديم ترجمة كاملة لمنظومة سنائى التى تقع كما يقول فى ثمانمائة بيت لا أكثر ، فيضيف بهذا جديدًا حقًا إلى الأدب العربى ، ويضع ما تبقى من وثائق موضوعنا بين يدى القارئ ، ولازلت آمل أن يقوم فى المستقبل بذلك .

هذه – فى تقديرى – أهم الدراسات التى تعرضت للمشكلة ، وهى تتراوح فى جملتها – كما رأينا – بين إشارات موجزة لتاريخ القضية أو محاولات مختصره لتعميق بعض جوانبها ، لكن القارئ العربى يظل بالرغم منها فى حاجة إلى الإلمام بصورتها متكاملة ؛ إذ أنه صاحب التراث الذى أثمر والأدب الذى أخصب .

من هنا نثبت ضرورة هذا البحث الذى حاول أن يستوعب بشكل مباشر المادة العلمية المقارنة التى استخدمت فى الدراسات الأوربية ، ويطلع على نصوصها العربية الأصلية ، ثم يقدم إعادة ترجمة وعرض لوثيقة المعراج التى أصبحت البرهان الأخير فى القضية . ويبحث عن نماذج لنظائرها فى التراث متفرقة حتى يعثر عليها مجتمعة .

وقد تطلب هذا معايشة حميمة لعناصر التراث الإسلامى وأدب المعراج والدار الآخرة فى كتب الرقائق الدينية والتاريخ والموسوعات الثقافية الشاملة أملا فى الوصول إلى أصل المخطوطة العربى ، وإذا كان هذا لازال مستعصيًا حتى الآن فإنى أدعو جميع المشتغلين بالفكر الدينى والفلسفة والأدب المقارن أن يجدوا معى فى البحث عن هذا الأصل ، وأعدهم بأن صحبة هذا التراث بما يختزنه من ثروة أدبية وروحية هائلة ؛ إذا اقترنت بالتوتر الثقافى واليقظة المنهجية ، كفيلة بأن نفتح فيه آفاقًا جديدة شديدة الخصب ؛ خاصة فى عناصره المتقدة المستسرة .

وقد كان الخيار الماثل أمامى فى هذا البحث هو التركيز على أحد الجانبين فى دراسة مصادر دانتى الإسلامية : إما جانب الأفكار ، وإما جانب الصور ؛ إذ أنه لا مفر عند تحليل الحدود الفاصلة بين الآداب المختلفة من فك هذه الوحدة المشتبكة فى البنية الأدبية وعزل جزئياتها وإن أفقدها ذلك كثيرًا من خصائصها .

وإذا كانت الأفكار بطبيعتها – كما يقول نقاد الفكر – أقرب إلى أن تكون محدودة فى صيغها المجردة وحلولها الميتافيزيقية وامتداداتها المباشرة مما يكاد يقصرها على قليل من المقولات (الأمهات) التى تصدر جميعها عن نفس الطبيعة العقلية للإنسان فتتشابه بقدر ما تتوافق الظروف التاريخية وتلتقى قوى التجريد البشرية ؛ فإن الصور باعتبارها انعكاسًا محددًا للأشكال الواقعية وتجسيدًا مناظرًا للمحسوسات فى كثرتها وتغيرها واختلاف نماذجها أعز على التوافق العفوى غير المقصود ؛ إذ كيف يستطيع الإنسان أن يتمثل مسبقًا الإمكانات المختلفة لتشكيلات الصور التى لا حصر لها ، وتراكيبها اللانهائية التى يستطيع الخيال الإنسانى أن يبدعها خلال محاكاته للواقع الشديد الثراء والتغير ؟

وكيف نتوقع أن تولد من بين هذه الاحتمالات الهائلة للصور والرموز الممكنة للعالم الآخر مثلا مجموعات مركبة متجانسة ، ومتطابقة فى كثير من خصائصها دون أية علاقة تربط بينها ؟ خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن مبدع أحد الطرفين إنما هو عقلية فردية لشاعر عظيم تبلورت لديه رؤية عصره وقومه ، ومبدع الطرف الأسبق إنما هو الخيال

الشعبى الذى اشتركت فى إثرائه وتنميته معطيات دينية وثقافية فى غاية التعقيد والأصالة ، مما لايمكن لفرد كائنًا من كان أن يصوغ مثله فى عمره القصير . ومن هنا فإن إيقاع هذه الدراسة قد اختار أن يضغط على المشاهد والصور باعتبارها الأداة الفنية فى التأثير والوسيلة الضرورية لضمان أدبية الدراسة .

ولا يسعنى فى ختام هذه الكلمة إلا أن أتقدم بأخلص الثناء وأجمل التقدير لجميع من أعانونى فى إتمام هذا البحث ، وأخص بالذكر منهم أستاذنا العالم الجليل المرحوم الدكتور عبد العزيز الأهوانى الذى تفضل بإعارتى بعض النسخ الخطية للمعراج ، وأستاذى وصديقى الدكتور أحمد هيكل الذى تكرم بإعطائى نسخته النادرة من الكتاب الذى يضم وثيقة المعراج ، ولكل الأصدقاء والزملاء الذين لقيت من حدبهم ورعايتهم ما عمر قلبى بمزيد من محبتهم والعرفان بصنيعهم الجميل .

والله ولى التوفيق .

دكتور صلاح فضل

obeikandl.com